من حوار مع منيف:

مدن الملح: بالنفط عاشت وبالنفط تموت(#)

«مدن الملح تنبت كالأعشاب البرية، لا تعرف جذوراً ولا مستقبلاً. النفط المنبجس من صحرائها بعثها مدناً، والنفط الناضب سيحولها إلى ذكرى، إلى مدن تسكنها الغربان واليوم، هجرها الناس وصارت آثاراً قديمة تذكر بماض كان موجوداً».

في رواية مدن الملح يعود عبد الرحمن منيف إلى بدايات هذه المدن. يعود إلى واحة (وادي العيون في أيام وادعة قبل اندلاع النفط، ثم انهيارها واختفاء (بصيرها) متعب الهذال. بعدها ننتقل إلى (حران) التي تنمو، وينمو معها وعي العمال في مواجهة السلطة التي تلد مؤساتها واحدة بعد الأخرى. نسكن حران ونلتقي بأهلها من عامل وسائق وخباز وملاك وطبيب ومداو بالأعشاب وشخصيات تغيب وتبدو، تكبر وتصغر ونتعرفها في تفاصيل صغيرة ترسم لنا الصورة الواسعة، ونتركها مع المدنية في لحظة وعي متوهج نقف فيها في وجه الاستغلال والقهر.

عبد الرحمن منيف، الصامت عادة، من أكثر من قابلتهم صعوبة في (البوح). عن روايته وعمله الفني يتحدث وكأنه مكره، ولكنه يرفض الإجابة عندما تنتقل الأسئلة إلى منيف الإنسان. هنا يتورع ويغوص في (طبقاته) الداخلية وعبثاً أحاول أن أتقدم نحوه.

*مدن الملح تغطي مساحة واسعة، زماناً ومكاناً. الحركة فيها كما الحياة تتوسع شيئاً فشيئاً. الشخصيات تظهر، تختفي. تكتسب أهمية أو تغيب تماماً. ليست هناك حكاية بالمعنى التقليدي. ليس هناك (أبطال) وكأن عنصري الزمان والمكان يمثلان (البطولة) الروائية؟

**تعمدت في هذه الرواية الابتعاد عن (البطل) بصيغته التقليدية، كي تحل محله (بطولة المكان) إن صح التعبير، ثم في الدرجة الثانية بطولة الزمان (كعامل تغيير) البطولة لا يمثلها شخص واحد، ولكنها الحياة في تنوعها وعناصرها المختلفة، وحتى في رموزها البشرية. القارئ يتوقع أن تكون هناك شخصية يتابعها منذ البداية حتى النهاية، وهي السيطرة على جو الرواية، ولكنني تعمدت أن أقلب العادلة: هناك أشخاص عديدون، وأشياء كثيرة تشكل اللوحة الكاملة. من الطبيعي أن يكون متعب الهذال هو الرمز المستمر للتعبير عن نمط من الحياة المستمرة والأمل والاحتمالات المقبلة. برغم هذا فالمساحة التي يشغلها في الرواية محدودة ويختفي لفترة ثم يعود بأشكال مختلفة، أو من خلال أشخاص آخرين.

*متعب الهذال هو صورة (وادي العيون) هو قيمها، حياتها واستمرارها، ولذلك يختفي باختفائها. موت (وادي العيون) - المكان هو موت متعب الهذال - الشخصية. التطابق كامل بين العنصرين؟

**متعب الهذال يمثل القيم التي كانت سائدة قبل ظهور النفط، بعدها صار هناك نمط جديد للحياة بدأ في التكون، ولذلك يغيب الهذال. ولكن له عودات بأشكال مختلفة تبقى رمزية.

*متابعة لما قلته عن (بطولة المكان) نرى في الرواية ثلاثة أمكنة أساسية: (وادي العيون) وحران، ومكان ثالث هو ليس مكاناً محدداً ولكنه في الوقت نفسه الأمكنة كلها. إنه (الصحراء) نفسها في المنطقة التي تمتد فيها الأنابيب، ونرى فيه تطور موقف العمال العرب في وجه الأميركيين: إنهم في موقف أكثر قوة لنمو وعيهم من جهة، ولأنهم في (عنصرهم الطبيعي) من جهة أخرى؟

**هذه هي بيئتهم، مكانهم الطبيعي. هذا تعبير عن العلاقة المتشابكة بين الإنسان والمكان. العمال هم أبناء هذه الصحراء. الأميركان طارئون. عندما وضع هؤلاء العمال في اقفاص حديدية سموها بيوتاً ما كانوا يستطيعون الحركة. عندما عادوا إلى بيئتهم الأصلية كانوا أكثر قدرة على التعامل. الأمكنة في النتيجة تبقى رموزاً، والصحراء هي النغم السائد في الرواية، من أولها إلى آخرها. حاولت أن أرصد من خلال هذه البيئة كل ما يطرأ عليها من تغيرات بمجيء وافدين أجانب أو بقيام نوع من الصناعة أو بتغير العلاقات. نمو مدينة ضمن شروط معينة، كما حدث في الخليج، ليس نمواً طبيعياً. المدن في أماكن أخرى لها جذر طبيعي ولذلك تنمو ببعض البطء، وحتى لو كبرت بسرعة تبقى لها قاعدة مادية، بينما هنا في المدن النفطية الأمر مختلف تماماً. (حران) نشأت من الصفر، قوية منسية مجهولة صارت مصباً ومكاناً للتصدير، وتفجرت أبنية وعلاقات وبشراً.

*يخطر لي أن أسميها (المدن المستوردة)؟

**هي هكذا في النهاية. تصوري أن ينضب النفط، ماذا ستكون نهاية هذه المدن، ماذا سيكون مصيرها؟ مصير حزين جداً.

*كيف تتصوره هذا المصير الحزين؟

**مع بعض الفوارق، ستكون كتلك المدن التي بنيت في غرب أميركا حول مناجم الذهب. عندما تم استخراج الذهب بسرعة واستنزف، تحولت إلى مدن مهجورة، تسكنها الغربان والبوم. هجرها الناس وصارت آثاراً قديمة تذكر بماض كان موجوداً. أتصور أنه إذا لم يتم تدارك الأوضاع في منطقة الخليج، لمحاولة بناء مدن أكثر إنسانية، أكثر قدرة على الاستمرار فسيكون مصيرها مماثلاً لمصير مدن الغرب الأميركي.

*ألا تعتقد أن هذا المجتمع الذي تكون اصطناعياً، ربما، في البداية، صار يحمل الآن عناصر استمراره؟

**من المفترض أن هذه الثروة الناضبة كانت وسيلة لبناء حياة طويلة الأمد، لقيام مجتمعات قادرة على الاستمرار وعلى تلبية حاجاتها من خلال إمكانيات ليست موجودة دائماً. ولكن إلى أي حد استفيد من هذا ويستفاد منه كي تتكامل الحياة في المستقبل؟ الموضوع نوع من الرافعة التي لا تدفعني إلى التفاؤل.

*تمنح شخصية متعب الهذال بعداً خارقاً تسميه (إلهاماً أو حالة أقرب إلى النبوة) تجعله ينظر إلى النفط والأجانب (تلك النظرة القاسية الليئة بالمخاوف) التي لا يتوصل إليها الآخرون (العاديون) الذين لم يصلوا إلى هذه الرحلة من (الإشراق) وكأنك تعتبر الوعي إلهاماً؟

**متعب الهذال أو أي واحد آخر، يمكن أن يكون مرآة تعكس حالة أكثر وعياً وأكثر إحساساً بالمشكلة التي بدأت تتكون وستأتي. طبيعي أن يبصر هذا الرجل السن الذي خبر الحياة وسافر ومرت مئات القوافل تحت بصره أن هناك عاصفة آتية. لقد أدرك هذا قبل غيره وأراد أن ينبه الآخرين، ولكن تنبيهه كان دون جدوى، لأن التيار القادم كان أقوى منه فجرفه وجرف معه وادي العيون. إنه كالشعراء الذين يتوقعون أحياناً بعض الأحداث القبلة بنوع من استشراف المستقبل.

*متعب الهذال كان وحده في هذا الوقف الرافض للنذر، الآخرون من أهل وادي العيون تزعزعوا وخافوا، وبعضهم تواطأ منذ البداية مع القادمين لتجدد وعالمهم؟

**قسم كبير من أهل القرية شاركه الرأي بعد فترة قصيرة من مجيء الأميركان. هناك ثلاثة أنواع من الناس: نوع مثل متعب الهذال تبتلعه وتبتلع غيره، يتنبه لها وينبه الآخرين. نوع آخر تهاون في البداية في استجابته للتحذير، اعتبره مبالغة وإسرافاً من الهذال ولكنه سرعان ما فهم وانضم إلى متعب. ونوع ثالث هم المتواطئون والمستفيدون الذين يرغبون في اللعب ضمن شروط جديدة، مثل ابن الراشد.

*هناك طرفان نقيضان إذن: الواعي والمستفيد. وتضيع بينهما غالبية الناس الذين يدركون دائماً (بعد فوات الأوان) بعد أن يكونوا قد دفعوا الثمن من حياتهم وأرضهم؟

**وهذا ما يحصل دائماً. الوعي يجب أن يكون في وقته. أو مبكراً، كي يكون مفيداً. كما في حالة متعب الهذال. الآخرون كانوا أقل إدراكاً للمشكلة ودفعوا ثمن هذا.

*في مدن الملح المرأة غائبة ولا تظهر إلا عندما تتحول إلى (امرأة متميزة). وقتها فقط نراها في الرواية؟

**أتصور أن المرأة ضمن نسق التطور الذي كان سائداً في تلك الفترة، في ذلك المكان، بالحجم الذي كانت فيه، موجودة في الرواية فعلاً.

*معنى ذلك إذن أنها كانت مغيبة تماماً اجتماعياً؟

**ما كان يمكن لي أن آتي بامرأة أصنعها صناعة.

*ولذلك فالشخصيات النسائية تتصف بالتميز. إنها تلك التي خرجت من الكومة الواسعة، مثل أم الخوش أو خزنة؟

**هذا الهامش السموح للمرأة كي تتحرك فيه. ولكنك تحسين أن المرأة موجودة بكثافة عندما تكون موجودة، تملأ دورها كاملاً. فأم الخوش توازي، إلى حد ما، متعب الهذال في وادي العيون. خزنة ملأت حران كلها بكثافة وبإنسانية.

*في مجتمع مثل هذا المجتمع الذي ترسمه. يجب أن تكون المرأة متميزة كي تكون.

**تماماً. هناك رجال أيضاً يمرون في الرواية دون أسماء، دون ملامح. الإنسان غائب ومطفأ في هذه المجتمعات التي كانت مجتمعات بدوية لها صفات خاصة بها والمرأة فيها هذا حجمها وهذا وجودها، وعندما تكون موجودة، يكون ذلك بكثافة وقوة.

*ألا يستمر هذا حتى الآن؟.. في الرواية رأيت جملة تحدث فيها عن إعادة ترتيب ذاكرة الناس وهم ينظرون إلى مدينتهم التي تتغير باستمرار. خطر لي أن روايتك مساهمة في إعادة ترتيب ذاكرتنا نحن عن هذه الفترة التاريخية التي مرت والتي لا نعرفها أبداً أو قليلاً؟

**لاشك أن التطور عندما يحدث بهذا الحجم وبهذه السرعة، في مجتمع متخلف نسبياً، تبدو الأشياء كلها مفاجئة وغير مألوفة. ما تعود عليه الناس من علاقات ونمط حياة، يدفع إلى لخلف إزاء التطورات الجديدة ويحل محله شيء آخر جديد، له مستلزمات على جميع المستويات الفكرية والنفسية بحيث يولد طبائع جديدة. وهذا حصل عملياً: الناس كانوا في أبنية طينية صغيرة ما لبثوا أن سكنوا الأبنية الكبيرة. كانوا يعيشون على مرور القوافل مرة أو مرتين في العام، صاروا غارقين في أمواج البشر تتوافد كل عام. وبدأت تتكون مدينة وتكبر. وهذا يعقد الحياة، وبالتالي يكون ذاكرة جديدة للناس حتى يستطيعوا التعامل مع هذا المحيط الجديد الذي يتكون حولهم.

ليست مهمتي هي إعادة ترتيب ذاكرة الناس، لأنها تتكون وتترتب وحدها، لكنني أحاول أن أنتزع من الماضي جزءاً من الأشياء التي بدأت تغيب. نحن نرى الآن النهايات. أما البدايات فقد بدأت تغيب ربما، وتفقد من ذاكرة الناس. روايتي محاولة لاستحضارها من جديد. إننا نرى الآن النهايات ولكن البدايات ليست هكذا.. وهكذا تطورت حتى وصلنا إلى هذه النتيجة الأخيرة. وهذا في حد ذاته شيء مهم لأنه لا يمكن لنا أن نتعامل مع النهايات دون معرفة مقدماتها.

*ربما كان هذا الربط بين البدايات والنهايات هو ترتيب ذاكرة الناس من هذه الفترة التي لا نعرفها، والرواية مدن الملح تدخلنا إليها؟

**الرواية عامة جزء من وسائل البحث والدراسة. يمكن لعلم الاجتماع وغيره من العلوم أن يتناول مجتمعاً من المجتمعات، ويحاول تتبع تطوره. والرواية أيضاً وسيلة لاستعادة الماضي وإعادة تشكيله ضمن نسق معين، روائياً، من أجل مساعدة العلوم والبحث في مجال التطور.

*في الرواية نرى الأميركان قادمين مع دراساتهم وأرقامهم وبحوثهم، يريدون أن يعرفوا حتى ما يفكر فيه الناس، وفي مواجهتهم على المستويات كلها مجتمع لا يعرف شيئاً عن الآخرين ولا عن نفسه، يجهل العصر الذي يعيش فيه والتطور الإنساني عامة.

**الأميركان جاؤوا ليعرفون الكثير، وبحوثهم ودراساتهم الكافية كانت استكمالاً لما يعرفونه سابقاً. كما فعل نابليون عندما ذهب إلى مصر مصطحباً بعثاته العلمية التي كتبت أدق ما كتب عن تاريخ مصر. الاستعمار لا يأتي كأداة عسكرية فقط، بل ترافقه كثير من الوسائل والصيغ لأجل استكمال ما يحتاجه للبقاء والاستمرار. ولذلك فالأمير كان وغيرهم من المستعمرين جاؤوا إلينا على بينة. هم الذين يعرفون كل شيء والناس تعطي من المعرفة بقدر دورها.

*قلت مرة عن المثقفين ودورهم "يجب ألا نخاف من إزالة الهالة المحيطة بهؤلاء الناس، التي تكرس أفكارهم وكلامهم. لم يتوصل المثقفون على امتداد جيلين أو ثلاثة إلى أكثر من الإفلاس، فهم لم يكتسبوا الثقافة حقيقية ولم يلتصقوا بالناس بحيث يصبحون جزءاً حقيقياً ومتكاملاً من الحياة. وقد عكس المثقفون احباطاتهم وفشلهم بأشكال سلبية.." هل تعتبر نفسك واحداً من هؤلاء المثقفين؟

**بدأت (النكرزة؟) ما هو السؤال التالي (يضحك). لا يمكن للواحد منا أن يعزل نفسه عن السياق. أنا واحد من المثقفين وبالتالي كثير من حيثيات الأمل والأخطاء التي صارت في مرحلة معينة، ساهم فيها كل واحد منا، بنسبة أو بأخرى. لا أحد بريء من المسؤولية. ولكن يبقى لكل واحد حجم مسؤوليته والدور الذي لعبه.. وأنا عندما قلت هذا كنت أعني أن المثقفين، لو كانوا أكثر وعياً وأكثر إدراكاً، لاستطاعوا تجنب جزء كبير من خيبات الأمل. ولكنهم ما كانوا على مستوى من الوعي والإدراك فلذلك يدفعون الضريبة التي مازالت مطلوبة منهم.

*ما هو حجم مسؤوليتك أنت، في الكتابة مثلاً أو في العمل السياسي؟

**عندما تتكون محكمة التاريخ يدلي كل واحد بأقواله..!

*بانتظار محكمة التاريخ، هل تدلي بأقوالك في محكمتي أنا؟!

**أنا لا أتهرب من الإجابة. أنا أزعم لنفسي أني جريء وأقول رأيي بصراحة، ولكن الموضوع أكثر تعقيداً من تقديم اعترافات. عندما تدرس مرحلة بكاملها ودور كل شخص فيها يمكن أن نرى أين أخطأ، وحجمه ونتائجه.

*من أين لك هذه التجربة الدقيقة، التي تظهر في الرواية، بالعالم النفطي؟

**أتصور أني وكثيرين من أبناء جيلي نتيجة أو خلاصة لرحلة النفط بشكل أو بآخر. أنا مثلاً، من غرائب الصدفات، ولدت يوم توقيع أول امتياز نفطي في السعودية، واهتماماتي كانت تتعلق دائماً بموضوع النفط. دراستي وعملي كانا يدوران في هذا الأفق. وعشت بالقرب من الأحداث التي كونت هذا المجتمع ونقلته من وضع إلى وضع. لهذه الاعتبارات وجدت أن الاقتراب ممكن من عالم النفط ومحاولة تقديمه، ضمن رؤية ووعي معينين.

*التيه هي الجزء الأول من مدن الملح، متى نرى الثاني؟

**انتهيت تقريباً من كتابته وعنوانه الأخدود. ويصور مرحلة زمنية لاحقة، في أمكنة أخرى جديدة. الجزء الأول ينتهي زمنياً في أوائل الستينيات، أما الجزء الثاني فينتهي في أوائل السبعينيات. الرحلة الثالثة لم أتعامل معها بعد ولا أعرف كيف ستكون...

*أنت الآن متفرغ للكتابة، كيف تعيش هذا (الامتياز) بعد أن جربت العمل والكتابة معاً؟

**عندما أكتب متفرغاً، أعطيها حقها بالوقت والانكباب. الواحد منا يكتب ولا يفارق ما يكتبه ليل نهار. ولكن لهذا ضريبته، والكاتب في بلادنا يجد صعوبات كثيرة.

*هل تقرأ في الراحل التي تكتب فيها؟

**أقرأ قليلاً. قراءات مختارة تغذي ما أكتبه.

*وعندما لا تكتب؟

**أقرأ الروايات، التاريخ، الجغرافيا، علم النفس.

*لمن تقرأ من الروائيين العرب، باستثناء صديقك جبرا إبراهيم جبرا طبعاً؟

**(يضحك). قرأت أخيراً الخبز الحافي لمحمد شكري وقصة بحار لحنا مينة، ومذكرات كازانتزاكيس.

*ما رأيك في الخبز الحافي؟

**نقطة، لا أحب أن أتحدث في هذا الموضوع. هذه ليست مهمتي وأنا لست ناقداً.

*ما رأيك بحنا مينة؟

**نقطة!

*لماذا ترفض الإجابة؟

**ليست مهمتي أن أقول رأياً في روايات الآخرين، ولا أن أعطي علامات.

*لماذا تعتبر هذه الأسئلة نوعاً من الفخ؟

**لا أريد الدخول في هذا الجو الملي بالاعتبارات السلبية. لا أنصب نفسي أميراً للرواية لأعطي علامات للروائيين الآخرين. لهذا حساسيته ونتائجه.

*تقول أيضاً: "كنت أتمنى الكتابة عن أشياء جميلة ولكن الأمر يبدو ضرباً من العبث" ماذا تعني بهذا؟

**الموضوعات التي اخترتها للكتابة غير سارة. لا تدخل السرور على النفس ولا تريح القارئ. موضوعات السجن والنفي والاغتيال وغيرها، وحتى النفط لا تعتبر مواضيع سارة. هناك كتاب لهم عالم آخر، يعيشون بينات مختلفة ولذلك يمكن لهم أن يكتبوا عن مغامرة في جزيرة ما، عن رحلة بحرية. أنا لا أملك هذا للكتابة عنه. وهذا ما دفعني إلى قول ما قلت.

*هل معنى هذا أنك لم تعش أشياء جميلة؟

**لا بالعكس. لقد عشت أشياء جميلة، ولكن حياتي الخاصة وما عشته فيها لا أريد أن استعرضه.

*ولكن ما تكتبه هو أيضاً حياة خاصة؟

**نعم، ولكن يعني الآخرين. نتواصل مع الآخرين بالتجارب المشتركة.

*كل تجربة تعني الآخرين إن كانت حباً أو نفطاً؟

**نعم ولكن بنسب مختلفة. النفط لا يعني فقط الدول النفطية، بل يعني كل الدول الأخرى الحيطة على الأقل.

*في مدن الملح يقول الأميركان عن البدو: "يبكون في داخلهم. البكاء يخفف عنهم. الدموع الحزينة تطفو على شكل صرخات وتوجع.."، هل أستطيع أن أقول أن دموع عبد الرحمن منيف الحزينة تطفو على شكل روايات؟

**كل واحد يقدم ما عنده. وما اختزنه من تجارب وذكريات ووعي يعكسه بأداة تعبير مناسبة. لا يمكن أن يطلب من الغني أن يكتب رواية، ولا يمكن أن يطلب من الروائي أن يغني. لكل واحد مجاله. الأميركان يرون هذا في غناء البدوي، أنا قد أرى شيئاً آخر.

*عند البدو أيضاً تقول في الرواية: "ما أعجب هؤلاء الناس. لشدما يبدون غامضين. لا يعرف الإنسان هل هم فرحون أم حزانى. كل شيء فيهم مغلف، طبقات فوق طبقات، تماماً كالصحراء التي يعيشون فيها". هل ينطبق عليك هذا الوصف؟

**ما رأيك أنت؟

*رأيي أنه ينطبق عليك تماماً، ولذلك لفتت الجملة نظري!

**لا أستطيع أن أقول عن نفسي أني هكذا أو هكذا.

ولكن كل واحد نتاج كثير من العناصر!!

- #الحوار مستل من كتاب "شاركت في الخديعة" للكاتبة سلوى النعيمي.

عبد الرحمن منيف وفن الخيال التاريخي

أو

عبد الرحمن منيف ورواية الحلم العربي

عباس بيضون /لبنان

تأخر عبد الرحمن منيف عن الكتابة الروائية فقد كرّس صدر حياته للاختصاص النفطي والنضال السياسي الحزبي ولم يخلص إلى الرواية إلا بعد أن نفض يده من الاثنين، فمنيف مثل في البذل والكدح وقد كدح في الرواية التي باشرها في الأربعين حتى عوّض بسرعة تأخره، وبنى فيها مؤلفاً لا يجاريه فيه من سبقوه في البداية، لا نتخيل بأي طاقة أتمّ آلاف الصفحات في روايات مفردة وخماسيات وسباعيات وكتباً في الفن والسياسة والذكريات. ومؤلف مثل منيف في أفاقه ومداه لا يكتفي بالقلة والضآلة وإنما يحتاج إلى الوفرة والغزارة وكان منيف دائماً لها، أي طاقة هائلة كتب بها "مدن الملح"، و"أرض السواد" وبالطبع "الأشجار واغتيال مرزوق" و"قصة حب مجوسية" والأرجح أنه في غمار عمله نسيّ السن ونسيه الناس له حتى إذا أدركه التعب، بدا ذلك مباغتاً للجميع ولولا ما كان يتسرّب من أحوال مرضه في الأشهر الأخيرة لبدا هذا الموت أشبه بالاغتيال.

حلقات ملأى هي حياة منيف وفي كل حلقة حقها ووصل ما بينها على نحو ما، فالأرجح أنه ترك العمل الحزبي وبقي منضوياً في السياسة ملتزماً من دون حزب، والنفط ظل شريان بعض أعماله الروائية. ومقالاته السياسية الكثيرة استمرت نضالية دعوية حتى آخر لحظة ولم تحدّ قيد شعرة عما كانت بالنسبة له ثوابت وطنية. ثم أن مؤلفه الروائي كان مدحشاً في خارطته العربية ذات الانتشار القومي. لنقل أن منيف كان من الأمناء في الأدب في حين أن كثيرين سواه يظلون يعتبرون الأدب فعل خيانة بل لنقل أن أثر بموضوعاتها وشواغلها وروحيتها مرحلة المد القومي.

الأرجح أن المدى القومي كان موجوداً بالقوة في مخيلة منيف سواء في التاريخ أو الجغرافيا أو الفكر أو المسار أو الحركة. كان موجوداً وكأن له قوة الفعل والتجسد الحقيقي والتمثل المادي. لقد كانت مخيلة منيف قبل التجزئة وقبل الانشقاقات الأهلية المعلنة والمضمرة، وقد أسعفته هذه الخيلة ليرى الأمور بكلية ومدىً لم يتوفرا دائماً لغيره، وأن ينقل إلى الرواية والفن الروائي الدقيق والمحبوك ما كان يبدو وقفاً على الشعر. لقد وحدت الرواية في فن منيف في حين أن من طبيعتها أن تجزأ وأن تذرر أحياناً، هذا الحل من التوحد أو التوحيد لم يبلغه عبد الرحمن منيف لأي رطانة شعرية، ففنه القصصي ظل دائماً مفرطاً في تجنبه لأي بلاغة مبالغة ولأي غنائية مفرطة أو رومنطيقية حنينية أو أي دعاوية أو شعارتية معلنة، كما أفرط في تجنبه للسيولة اللغوية ومحاكاة النظم الشعري، لذا فإن الخيلة التوحيدية كانت ابنة حقبة بدا فيها الحلم القومي ماثلاً شاخصاً حقيقياً وملموساً. وإذا كان هذا الحلم شحب أحياناً وقل كأنه لم يكن، إلا أننا لا ننسى أنه في حقبته ملأ العين والحواس والحس، لم يفقد منيف مدى مخيلته حتى بعد أن وهن الحلم ودب التجزؤ في الأوصال وبدا الواقع في ما دون القطري والطوائفي أحياناً.

لم يفقد منيف الحلم لأن عمله الروائي كان أيضاً شيئاً من علم الآثار والحفريات التاريخية. كان في المدى ويتصل حتى عبر الانقطاعات وما بعدها. لقد كانت رؤية منيف في الأساس ملحمية والملحمة تجمع المتفرقات وتصل الشوارد والمجتزءات، وفي الملحمة شيء من احتشاد وحضور يفضيان عن الهوامش والمسارات الجانبية. كانت رؤية منيف ملحمية بمعنى أنها خيال تاريخي فهنا يتحول الزمن اليومي تاريخاً، أي يتحول جدلاً وصراعاً وتأسيساً وانبناءً وهدماً. وهنا تحصل الأمور في عرض وطول وأفق وعمق ذات ارتداد وتواصل وشمول، لقد وجد منيف معادلاً قصصياً لتلك الرؤية التي ألهمت أجيالاً وانبنى فيها ما يمكن أن نسميه الحلم العربي.

معادلاً قصصياً لرؤية تاريخية ألهمت أدباً بكامله في العالم، فها هنا نجد الجماعات تتحرك والحدود ترسم والدول تقوم في حبكة فيها ما فيها من النزاعات والمؤامرات والتكائد.. ربما لهذا أمكن في أدب منيف أن تتعانق هذه الرؤية مع تطلب راهن، إذا وجدت الخيلة القومية فقد وجد أيضاً "القارئ" القومي وهذا القارئ كان يسعى لأن يتمثل في فن وأدب وغناء "أسطورته المعاصرة" ولا نشك أن عبد الرحمن منيف كان قدر على استحضار هذه الأسطورة المعاصرة فيها هو الزمن العربي الحاضر زمن النهضة والنكسة والحلم والانكسار يبدو في مد وجزر، في كر وفر، إنه في معركة للنصر فيها نصيب وللهزيمة نصيب، لكنها معركة، لكنها حركة مستمرة، وشاملة وواسعة وعمل تأسيس مثابر وبناء وهدم متصلان، أي أن هذا الزمن في يغدو بلا لون ولا يتحول إلى لا جدوى ولا ترحات وبلاهات. إنه دائماً في سعيّ ذي معنى، في حركة ماثلة إلى أفق وإلى شيء، في مشروع ما وسياق ما، إنه دائماً في تاريخ.

رحل عبد الرحمن منيف وهو ساخط على سيرة فتعلتها له صحيفة سعودية. وقد توقفت الصحيفة بفعل احتجاجه عن نشر السيرة. إلا أنه وفي أيامه القليلة الأخيرة كان يخشى أن تعاود نشرها. قد لا نجد بالضبط سيرة شخصية روائية لعبد الرحمن منيف إلا أننا نراها مكبّرة مجسّمة ملحمية في عمله الروائي فهذا الرجل لم يتوطن كعمله الروائي وظل يؤسس ويعاود التأسيس من بلد إلى بلد، لقد كان سعودياً (مع نزع الجنسية) وأردنياً في الوقت ذاته، وقد صار مع الوقت لبنانياً وسورياً وعراقياً... إلخ. لقد تضمنت سيرته تقريباً بذور رؤيته القومية التي رفدتها الرحلة والتاريخ الحزبي والنضالي، لكن الرؤية ليست شيئاً إذا لم تتحول إلى خيال خاص بل إلى حاسة روائية، هذا بالضبط ما فعله منيف، بل فعله بقدر كبير من السليقة والاستعداد والعفوية إذا جاز التعبير. كأن ما بين رؤيته وفنه لم تكن الهوة واسعة، وهذا ما يؤثر في أدب منيف، كان يرى التاريخ حقاً حيث لا يرى غيره شيئاً. ولأنه يراه في مطارح بدت فيها الأشياء فوضى متبقية من عالم يرفض أن يزول، فإنه ابتكر من هذا السديم تاريخاً فعلياً وهو لم يكن ليفعل ذلك لولا خياله التاريخي إذا جاز القول. جعل عبد الرحمن منيف مثلاً في خماسيته "مدن الملح" من تأسيس السعودية تاريخ

العنى التاريخي والطقسي للتأسيسي، وأشهد أن قراء مدن الملح يشعرون أنهم حيال نوع من أو ديمة معاصرة، بل ويجدون في معارك العشائر قبيل اكتشاف النفط تاريخاً يسعى. يشعرون أن شيئاً ما يتأسس حتى في هذه اللحظة ويندرج فيما بعد بتأسيس الدولة والبلاط بكل ما يتقاطع معه هذا التأسيس مع مسارات ومصائر وعوالم فردية، هذه المتعة لا تأتي من تاريخية الأحداث ولكن من فن ابتكار التاريخ وصناعة السرح التاريخي. عبد الرحمن منيف في خماسيته معلم في هذا الفن معلم لا لموهبته الأكيدة فحسب ولكن لتصديقه (الذي قد يكون سياسياً أقل قيمة) لفرضية التاريخ.

قد يكون التصديق أقل قيمة سياسياً وفي هذا المجال لم يكن منيف دائماً في مستوى فنه لكن التصديق يمنح فن منيف مسحة من الحقيقة ومن الفعل طالما جعلته مغرياً بل وشعبياً (إلى حد)، يبدو ذلك في عرضه للمعارك والمؤامرات الكبرى والتحولات كما يبدو في عرضه لعالم الحريم والنزوات الشخصية، المدينة تكبر أمام أعيننا في الخماسية والعلاقات تتعقد وتتطور والمدى يتسع ويتوزع ولا نشك أن هذا تاريخ وأننا نرى ملحمةً وتاريخاً.

رحل عبد الرحمن منيف بعد أن أنهى أثر أضخماً هو "أرض السواد" وما كنا لنظن أن رجلاً أنجز آلاف الصفحات مقبل على الموت لم يمهله المرض كثيراً وربما لم يطق رجل كعبد الرحمن منيف الشعور بأنه بالعينين اللتين طالما رأتا عصوراً وأزمنة لم يعد يرى سوى سرير المرض وحجرة العيادة فآثر الرحيل.